التفسير السياسي للقرءآن

(سورة الفاتحة)

١-{ بسم الله الرحمن الرحيم }

الاستعانة باسم الله فيها ثلاث فوائد سياسية لرئيس الجماعة الذي هو الرسول، على الأقل.

الأولى، إثبات عجز الجماعة، أي تعويد الناس أنهم عاجزون بأنفسهم عن فعل أي شيء، وأن لا يروا ما يصدر منهم على أنه صادر منهم حتى لا يروا لأنفسهم حق تملك هذا الناتج ولا حق أنفسهم في أي قيمة أو منصب بحكم صدور الناتج عنهم، نزع الشعور بالذات وقوتها واستحقاقها عن الأفراد هو أهم مطلب للسياسة الشمولية، وهذا يتحقق في البسملة.

الثانية، سحر اللغة، لأن الرئيس يريد التحكم في عقول الأفراد فلابد من غزو عقولهم وأفضل غزو هو بالكلمة، فلابد من إعطاء اللغة طابعاً سحرياً متعالياً حتى يُرجع إليها بدلاً من الرجوع للواقع الطبيعي والإحساس النفسي والبدني الذي هو السمة الطبيعية للأحياء، لكن لأن الجماعة ستقوم على تجريد الناس بقدر كبير من حريتهم وممتلكاتهم بل حتى من حياتهم ولذاتهم في كثير من الأحيان أو معظمها إن لم يكن كلها في بعض الحالات فلابد من استبدال مبدأ الواقع الطبيعي بالواقع اللغوي، فتصبح اللغة هي الطبيعة، والإدراك المعنوي للكلمات بدلاً من الوجدان النفسي والإحساسات، البسملة تساهم في هذا الأمر مساهمة عظيمة من جهة أن القارئ لها يعتقد أن مجرد تلفظه بهذه الكلمات فكأن اسم الله صار معه يعينه على العمل ولاحظ أيضاً أن اسم الله صار بديلاً عن حقيقة الله وهذا أيضاً من الاستبدال أي استبدال الواقع باللغة. وحين يصبح الناس يعيشون في محيط لغوي بدلاً من المحيط الطبيعي، فكل شيء ممكن تقريباً بالنسبة لمن سيتكلم معهم ويلقي عليهم المعاني والأوامر ولذلك سنجد بعد ذلك تحكماً في الكلام لأن سلطة الرئيس صارت سلطة كلامية، فكل متكلم غيره منافس له على عقول الناس بالتالي على حياتهم وممتلكاتهم وأعمالهم التي هي الغرض من تأسيس الجماعة.

الفائدة الثالثة مبدأ الرحمة مع الأعضاء، فذكر أسماء الرحمة الإلهية هو مبدأ لما سيأتي من أمر بحسن الظن بأعضاء الجماعة مقابل الحذر من العدو وهو الغير، وكذلك مثل وصف "رحماء بينهم" مقابل "أشداء على الكفار"، وكذلك "أذلة على المؤمنين" مقابل "أعزة على الكافرين"، وبغية التفريق بين من هو معنا ومن هو غيرنا أو ضدنا، فتكون الرحمة للذين هم منا والحذر أو العنف على من هو غيرها وعدونا بشكل أو بآخر بحسب درجات العداوة المختلفة ومجالاتها المتعددة، ومبدأ الرحمة مهم لتماسك الجماعة، وكذلك لأن النفس تُنشيء الضد بإنشاء ضده، فمن شعر بالرحمة سيشعر بالشدة، ومن شعر بالذلة سيشعر بالعزة، وبنفس الدرجة عموماً، ولذلك يؤمَر المؤمن بالرحمة الشديدة مع المؤمنين وهم أعضاء الجماعة السياسية وهذا يساعد على تماسك الجماعة وتوحدها. ومن جهة أخرى سيساعد على تكوين مشاعر الحذر والغضب والعزة والشدة والغلظة على العدو والغير والذي سيتم دفعه أو غزوه لاحقاً لتسخيره لخدمة الرئيس وجماعته.

إذن ثلاث فوائد سياسية في البسملة: ١)أنت لا شيء. ٢)اللغة هي الوجود. ٣)الرحمة حاكمة على الجماعة.

٢-{ الحمد لله رب العالمين }
كالبسملة وهذه وما بعدها، أهم فائدة سياسية في هذه العبارات هي تأليه البشر بشكل مباشر أو غير مباشر، لأن المؤمن سيشعر بأن الله رب العوالم كلها هو الذي يعمل باسمه ويرتبط به، وفائدة ذلك راجعة إلى الرسول طبعاً الذي سيمثّل الحضور الإلهي والإرادة الإلهية، بالتالي لشخصه أعظم حماية ولكلامه أعظم سلطة، وهذه هي الفائدة السياسية العظمى التي يرجو الاقتراب منها أي رئيس وطالب رئاسة، فالكلام عن الله رمز على تأليه المتكلم عن الله بدرجة أو بأخرى، أي التأليه من الناحية العملية وقد يصل أحياناً إلى الناحية الاعتقادية أيضاً، والفكرة هي جعل إنسان من بين الناس فوق بقية الناس بحجة أنه رسول الله ومعبّر عن الإرادة الإلهية حين يأمر الناس بالأوامر، ومعبر عن الحق والصدق المطلق حين يخبر الناس بالأخبار عن الوجود، فلأنه رسول الله الذي هو العدل والحق، ستصبح أوامره عدل وأخباره حق، بغض النظر عن أي اعتبار آخر، ولذلك ستتم مهاجمة مفاهيم العدل والحق الطبيعي بعد ذلك والطعن في نفوس وقدرات عقل الناس حتى لا تعارض هذا الأمر الذي هو القاعدة الكبرى لبناء السلطة المطلقة للبشر على البشر.

فائدة أخرى في الحمدلة هي تعزيز لا شيئية الفرد، فكما رأينا في البسملة أنت لا شيء بذاتك ومفتقر إلى اسم الله، لكن حين تنظر في نفسك واقعياً وتجد ما يضاد ذلك أي تجد في نفسك وحولك قدرة وعلم وحياة وجمال وخير وبقية الكمالات ولو درجة ما وتجد مثل ذلك في الناس والكائنات حولك، فكيف ستوفق بين هذا المشهد وبين الاعتقاد بأنك لا شيء بذاتك ومفتقر إلى اسم الله في كل شيء؟ الحل هو {الحمد لله رب العالمين} أي المستحق لكل هذه الكمالات وما يلزم عنها من حمد هو الله وحده، فكل ما يظهر من محامد في العوالم كلها هو لله، وهذا يساعد على نفي العقل للقيمة الذاتية لكل شيء. بالتالي يفتح الباب لرئيس الجماعة ليأمر بأي شيء بخصوص هذه الأشياء لأنها كلها لله ذاتاً ومحامد وصفاتاً، فيكون لله أن يأمر فيها بما يشاء، وقد عرفنا أن (الله) رمز على الإنسان الذي سيأمر بالنيابة والخلافة عن الله بحسب العقيدة اللغوية.

ثم اعتقادك بأن الله الذي تعمل باسمه هو {رب العالمين} يعني أن العالمين شيء نسبي وقيمة دونية بالنسبة لله أي الرئيس، وبما أن الإنسان لا يشهد إلا العالمين إذ الله "لا تدركه الأبصار" فلابد من الطعن في حواس الإنسان وقيمة الحواس، وهذا أساس الطعن والذم المتعلق بالشهوات البدنية والأموال من جهة.

مدار السياسة القاهرة للأفراد على سلب الذات والصفات والأفعال الخيرة وسلب الملكية والكلمة والطبيعة من قيمتها الأولية العادية، وتجيير كل ذلك لصالح رئيس الجماعة بوجه أو بآخر حتى يقول "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم" وحتى يجعل حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فوق كل علاقة طبيعية إنسانية أو مالية أو مكانية أو بدنية أو كل شيء طبيعي، هذه هي

الخلاصة والباقي تفاصيل ووسائل، ولعل أهم خطوة هي الربط المطلق بين الله وبين إنسان معين أو فئة من الناس فيحصل احتكار لله وكل من لا يعبدهم هم ويسخر نفسه وماله لهم فهو عدو لله، حتى يقوم أن الذين يفرقون بين "الله ورسله" هم الكافرون حقاً، يعني-ليس يعني ولكن هذا هو النص-الذي يؤمن بالله ولا يؤمن بالرسل فهو الكافر حقاً، فماذا عن الذي لا يؤمن بالله أصلاً؟ هذا غير ملتفت إليه هنا لأن المراد هو التوحيد بين الله وبعض الناس بحيث تصبح هذه الفئة هي من الناحية العملية الله أو كأنها الله أو كأنه الله لا حقيقة له ولا منفعة منه إلا بواسطة هؤلاء، وهو المطلوب للسياسة، وأما نفس الله فلا يعتبرونه إلا بهذا الشرط الذي يجر المنعة المادية لهم هنا والآن. فالحمد لله تعني ما لك من كمالات وما تنتجه من خير ليس لك في الحقيقة، وبفتح هذا الباب سيستطيعوا الدخول إلى سلبك حقك وملكيتك بحجة أن الله أمر بكذا. طبعاً الذي أمر هو إنسان من يتبول ويتغوط مثلك ويهوى ويشتهي مثلك ويفكر ويريد ويخاف مثلك، لكن الأمر سينسبونه إلى الله حتى تكون له سلطة ترعبك وتجعلك تتخلى عن حريتك و(فكرك) وأملاكك لصالح هؤلاء المتألهين ودولتهم التي هي أقدس شيء عندهم. الإنسان إذا تكلم عن الله فالغالب إن لم يكن دائماً يريد أن يسلب إنساناً غيره شيئاً ما بدون المقابل الطبيعي العادل.

{رب العالمين} فيها وهم آخر وذلك أنها تسهل على عقول الناس الحكم على {العالمين}، أي استبدال الطريق العلمي العصب باكتشاف شيء شيء من العوالم ثم الحكم عليه بالحكم المناسب له، كلا، بدلاً من ذلك يُصبح {العالمين} كلمة واحدة، سهلة، جامعة مانعة، ويتم معرفة حقيقتها العليا ومكانتها المطلقة عن طريق نسبتها إلى الرب {رب العالمين} انتهى البحث في (جد مر) الوجود، فالموجودات كلها عابدة وخاضعة للرب الذي هو رأس دولتنا والذي رسوله رأس دولتنا المتجسد، والسلام، لذلك يفشو الجهل بالطبيعة بل ومحاربة هذا العلم أو اللامبالاة به عند أكثر المؤمنين، ولديهم أجوبة سهلة على معظم المسائل العملية اليومية، فهذه الراحة المكلفة التي يجلبها مثل هذا التفسير الربوبي للعوالم مفيدة سياسياً من جهة قدرة الرئيس على تفسير أي حديث بتفسير ربوبي ينفعه هو، فالهزيمة للابتلاء والنصر لكذا والفقر لكذا وهكذا كل حدث يتم تفسيره بنحو ينفع الرئيس والدولة في إخضاع العامة. وفائدة أخرى أنها تحجب العامة عن العلم بالأسباب الطبيعية التي ستعطيهم القدرة على التصرف فيها بالتالي التحرر النسبي من رق الطبيعة والحاجة إلى الوعود الأخروية والأوهام اللغوية التي سينتزعها الرئيس وحزبه، ولهذا أمثلة كثيرة جداً وكالعادة متناقضة ستأتي في باقي القرءآن.

٣-{ الرحمن الرحيم }

وصف لله رب العالمين، أي في ربوبيته للعالمين هو رحمن رحيم، عود على مبدأ الرحمة، وتوجد إضافة من جهة تبرير وجود الرسول، الذي هو "بالمؤمنين رؤوف رحيم"، والمعنى أن الله رب العالمين أراد أن يرحم المصطفين في العالم فأرسل رسوله وهو "رحمة للعالمين". و

وفائدة أخرى لتعدد الأسماء الإلهية هي إشباع الرغبة القوية الناتجة من مشاهدة الطبيعة وأحداثها المتضادة، أي تعدد الأسباب الفاعلة في العالَم، والتي تم تجسيدها دينياً في عقائد

الشرك ولكن لأن الشرك في الألوهية يقتضي تعدد الدول وقيمة التعدد بشكل عام والتي تحاربها نزعة التوحيد السياسي عن طريق التوحيد الألوهي، لكن لا مفر لتحقيق الاستقرار النفسي الضروري للاستقرار السياسي من إشباع هذه الرغبة، وتم ذلك عن طريق فكرة تعدد الأسماء الإلهية، فصار كل اسم كأنه إله مستقل بحسب عقائد تعدد الآلهة، لكن الفرق هو أنه لم تتم التضحية بالقيمة الكبرى لوحدة الإله التي هي القاعدة الكبرى لوحدة الدولة ووحدة رأس الدولة.

وراء كل عقيدة إلهية إرادة سياسية بشرية.

٤-{مالك يوم الدين}

المبرر الكبير لكل التنازلات والتضحيات النفسية والمالية التي سيُطالب بها الجمهور هو عقيدة الآخرة، لأن كل ما سيؤخذ منك اليوم سيتم تعويضك نفسياً عنه وإرجاء مطلبك لمحكمة اليوم الآخر، وكل شيء ستخاف من الانصياع له اليوم سيتم دفعك إليه بتصوير رعب سيقع عليك إن لم تقم به أو خير عظيم ستناله إن قمت به أو كلاهما وهو الأصل. بدون الآخرة يصعب أو يكاد يستحيل إقامة دولة شمولية قاهرة. فلا تستغني دولة شمولية عن نوع من أنواع الآخرة، وقليل جداً منها-وهي محاولات حديثة-بنت شموليتها على اعتبار قيام الدولة هو تحقق الآخرة وأنه لا شيء وراء هذه الدولة يمكن للجمهور أن يطمح له فهو نوع من اليأس بالاستسلام للحاضر الذي لا مخرج ولا مفر منه وبعضهم منع فعلياً الجمهور من الخروج من الدولة-حرفياً.

٥-{ إياك نعبد وإياك نستعين}

الفائدة السياسية الأولى هي التوحيد، مرة أخرى، لأنها أهم المطالب إذ وحدة الدولة أساس وجود الدولة. وقوله {إياك..إياك{ يشير إلى ذلك.

ثم فائدة أخرى وهي {نعبد} وفيها ترويض النفس على فكرة العبودية، لأن كل أتباع الدولة الشمولية هم في حكم العباد والعبيد، إذ العبد هو الذي يجعل إرادته تابعة لإرادة غيره، وبما أن الدولة قائمة على الأمر والنهي، أي إرادة ما، فأتباع الدولة عباد لها لأنهم يتبعون أمرها ونهيها وهما تعبير عن إرادة المُشرّع فيها وهو الرئيس أياً كان وصفه وعدده، وفي أمر الدولة الدينية المرجع واحد وهو الرسول، فبما أن طاعة الرسول مفروضة فهذا يعني عبودية المؤمنين للرسول ولذلك جاءت الآية تقول "قل يا عبادي" فالقائل "يا عبادي" هو الرسول، لذلك الخطاب في الآية هكذا "لا تقنطوا من رحمة الله" وليس "لا تقنطوا من رحمتي" على أن الله هو المتكلم بل الرسول هو المتكلم، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله تعني من يعبد الرسول فقد عبد الله وهي العبودية التي تظهر بالطاعة، ولذلك جعل طاعة دعاة الشرك شركاً أي عبادة لغير الله "فإن أطعتموهم فإنكم لمشركون"، إذن {إياك نعبد} ترجمتها العملية هي وحدة مصدر التشريع ووحدة الشرع والقانون.

ثم {إياك نستعين} تشير إلى القوة التي يُطلب منها العون، فالمشرك يتخذ الأعداء أولياء لينصروه، لكن المؤمن وليه "الله ورسوله والذين ءآمنوا"، فالاستعانة لها معنى عملي مادي جداً

وهو القوة العضلية والمسلحة التي يستعين بها المؤمن لإتمام أموره ودفع ما يخشاه، بعبارة أخرى مباشرة، تعني وحدة الجيش والشرطة والعسكر، فالكل جنود الدولة ولا يجوز الاستعانة بغير القوة العسكرية للدولة خصوصاً إن كانت تلك القوم من خصوم الدولة ولو كانوا من أولي قربى المستعين، فبحكم الهوية الجديدة المتجاوزة لروابط الدم والإعجاب التي تُعطى للمؤمن-تابع الدولة- يصبح ولاؤه كله للدولة ممثلة في الرسول ومن معه من المقربين له أصحاب المناصب وأولي الأمر، وبقول المؤمن التابع العبد {إياك نستعين} ينفي المؤمن كل مرجعية لجنود غير جنود الدولة ويتبرأ من خصومها بالأخص.

إذن قوله {إياك نعبد وإياك نستعين} هو أعظم تعبير عن طبيعة الدولة ودور التابع لها فيها أو وحدة المرجعية القانونية ووحدة المرجعية العسكرية، ودور التابع الطاعة لإرادة الأمراء والاستعانة بهم فقط على كل ما يريد تحقيقه مما يهم الدولة ويتعلق بها وهذه دائرة تتسع مع توسع نفوذ الدولة وتختلف بحسب حالتها في الحرب وطبيعة وكمية وكيفية قدرة خصومها.

٦-{اهدنا الصراط المستقيم}

هنا اعتراف آخر بالعجز حتى عن معرفة الطريق الموصل إلى الأغراض والمرادات، فهو من جهة يعبر عن التعليم الذي ستتكفّل به الدولة لتشكيل عقول أتباعها، ومن جهة أخرى يعبّر عن السلطة القضائية التي تفصل بين الناس كما سنرى في الآية التالية، ومن جهة ثالثة تعبّر عن تقليد الأتباع لرؤوس الدولة في كل ما يتعلق بتحقيق مرادهم، فهي الشمولية بكل ما للكلمة من معنى.

٧-{صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين}

هو نفس التقسيم الذي سنراه بعد ذلك في القرءآن للأقوام، فقوم هم منا وقوم هم عدونا وقوم بيننا وبينهم ميثاق لا هم مع عدونا ولا هم معنا، فنحن المنعم عليهم، وعدونا المغضوب عليهم، والمحايد ضال لأنه لم ينضم إلينا لكن له مرتبة خاصة به من حيث السلام العام الذي بيننا وبينه، فظاهر هذه الآية تقسم الناس عند الله بحسب حالتهم الدينية ولكن تطبيقها العملي هو تقسيمهم عند دولتنا بحسب حالتهم السياسية، وحين نصف إنساناً بأنه مغضوب عليه من الله فإن هذا أقوى تبرير نفسي لفعل كل أنواع العدوان والغظة تجاهه "وليجدوا فيكم غِلظة" لأنه إذا كان الله الذي خلقه غضب عليه وسيضعه في النار ليتعذب فيها للأبد، فهو بلا قيمة إذن، وحيث أنه بلا قيمة يكون عدواننا عليه وقهره وتسخيره لنا أمراً مقبولاً في الضمير. وبما أننا نحن المنعم علينا من الله فلنا مقام مميز بين الأمم بغض النظر عن أي اعتبار آخر من جهة أعمالنا وآثارنا، لأن نفس النعمة الإلهية شرف وأي شرف، وهذا يبرر لعامتنا ما يجدونه من فضل للأمم الأخرى علينا في شتى النواحي، لأننا سنرد بكل بساطة |الله أنعم علينا وغضب عليهم وأضلهم" وهذا سيُبقي العامة في حالة رضا بل يزيد تبعيتهم لدولتنا لأنهم سيعرفون بأنهم لن يجدوا أي أحد يعترف بهم وبقيمتهم غيرنا، خصوصاً حين يرون احتقار الأمم لهم بسبب دينهم أو عرقهم أو جهلهم أو أي سبب آخر أو مجموعة أسباب. تقسيم الناس دينياً حجاب على تقسيمهم سياسياً، والتقسيم

السياسي يتبع أغراض المُقسِّم لهم وما يريده منهم في الأمور المادية مثل القتل أو التسخير أو العبودية بشكل عام أو المصالح الطبيعية، وحين يبدأ الإنسان سعيه للقوة السياسية بدون أن تكون لديه مقومات هذه السلطة الكافية كالمال والجنود، فإنه يكون أشد تمسكاً بالمعاني الدينية المجردة لأنها مجانية من جهة ولها إن وقع الاقتناع بها قوة كافية لجلب المال والجنود.

حين يكون التقسيم مبنياً على أمور غير محسوسة ولا معقولة مثل غضب الله ورضاه، وإضاله وهدايته ونعمته ونقمته، فالمعنى العملي هو عدم إمكان الناس المجادلة في أسباب التقسيم أو تبريره أو نقضه، لأننا إن قلنا مثلاً بأن التقسيم مبني على التقدم الاقتصادي أو العلمي التقني فإن هذه أمور محسوسة ومعقولة ويمكن التأكد من وجودها وعدمها بالتالي يمكن معرفة سرها وتحصيله وتغيير القسمة، لكن إذا أردنا تقسيماً لا يتغير لابد من جعل سببه لا يتغير ولا يُدرك أصلاً إلا بحسب قول القائل الذي حجّته نفس قوله، وهذا هو التقسيم الديني مثل {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} فهذه مفاهيم في سماء لا يوصل إليها، وهذا ما يجلب الاستقرار للتقسيم الديني السياسي للناس بحسب مُراد واضع التقسيم، بالتالي لا عبرة بكل المظاهر الطبيعية والعلمية والمدنية وغير ذلك، ولا يمكن لأحد أن يغيّر هذا الأمر. لذلك عادةً الاستقرار في الدولة الدينية أكبر منه في الدولة غير الدينية، إن كان واضع الدين هو صاحب الدولة، لكن سيقع النزاع بعد ذلك بين أتباع صاحب الدولة الأول لأن كل واحد منهم سيريد أن يكون هو صاحب الدولة الجديد وقد عرفوا السر واللعبة كلها ولذلك لا يُسلِّم بعضهم لبعض كما سلّموا لصاحب الفكرة الأول، ومن هنا النزاع دائماً في السياسة والخلافة والإمامة والمشيخة في كل دين ومذهب في الأمم كلها، ومن هذا الوجه الدولة غير الدينية أكثر استقراراً من الدولة الدينية.

هذه وجوه من التفسير السياسي لسورة الفاتحة الشريفة. نفع الله بها المخلصين وأنار بها طريق العلماء الربانيين. والحمد لله رب العالمين.